إيش تاخد من تفليسي يا برديسي؟

- لقد حانت لحظة إلقاء البرديسي في الجحيم..

قال ذلك محمد علي باشا لمحمد بك لاظ، فقال محمد بك:

- كم أكره هذا الرجل وأتعجب من صبركم على ما يفعله يا أفندينا!
- لقد انتهى دوره، وحان وقت التخلص منه يا لاظ بك
- هل سنقتله يا أفندينا؟

فضحك الباشا قائلًا

- بالطبع لا يا لاظ..

كان محمد بك لاظ الذي كثيرًا ما ورد اسمه في تاريخ الجبرتي باسم كتخدا بك، والمشهور حإليا باسم لاظ أوغلي أو لاظوغلي، الساعد الأيمن لمحمد علي باشا وموضع ثقته والمتحدث باسمه، وكان لاظ شديد الإخلاص والولاء للباشا، وكان معجبًا به وبعبقريته أيما إعجاب، ولكنه لم يتمكن أبدًا من توقع الخطوة القادمة التي سيتخذها الباشا في عديدٍ من الأمور، ولكنه كان يستمتع بأداء الباشا منذ أن حضرا معًا إلى مصر ضمن قوات الجيش العثماني لطرد الحملة الفرنسية، وكان العثمانيون قد فشلوا في هزيمة الحملة الفرنسية وطردها من مصر، فاضطروا للتحالف مع الإنجليز، فتمكنوا

بمساعدتهم من هزيمة الجيش الفرنسي وأجبروه أن يغادر مصر. ومنذ ذلك الوقت، كانت أحوال مصر في غاية الاضطراب؛ فقد تصارعت عدة قوى على الحكم، والطريف أن محمد علي، شخصيًّا، كان وراء هذه الاضطرابات والعقل المدبر لها، أو على الأقل لمعظمها، فكان يستخدم جميع الوسائل المتاحة من قوة ودهاء ليضمن عدم سيطرة أحد الفرق المتصارعة، وعدم استقرار الأمور لأيِّ فريق منهم في مصر، كما كان يتقرب من الزعامة الشعبية، ويراهن عليها، فالشعب هو القوة الباقية التي يمكن أن تمنحه حكم مصر وسط كل هذه الصراعات، وكانت الحملة الفرنسية قد أشعلت روح الجهاد في الشعب المصري، وتسببت في إفاقته من سباته العميق وربما دون أن تقصد.

وُلِد محمد علي باشا بطل قصتنا سنة ١٧٦٩ م، ونشأ بمدينة قولة من ثغور مقدونيا، وكان منذ صغره يبدو عليه النبوغ والجرأة واقتحام المخاطر وروح المغامرة، منذ أن التحق بالجيش كان يميل إلى حل المواقف والمشكلات الصعبة بطرق غير تقليدية تعتمد على الذكاء الحاد وسرعة البديهة وانتهاز الفرص المناسبة، بغض النظر عن أيَّة اعتبارات أخرى، ومارس محمد علي فترة تجارة الدخان، مما جعله يكتسب خبرة كبيرة في المسائل التجارية والاقتصادية، وكان لا يعرف القراءة والكتابة، ولكنه كان بارعًا في قراءة وجوه الرجال. ثم ترك محمد علي تجارة الدخان، وعاد مرة أخرى إلى الحياة العسكرية، وعندما قام السلطان العثماني بتجميع جيش كبير لقتال الحملة

الفرنسية في مصر، طلب من كل حاكم ولاية أن يرسل قوة لتنضم إلى هذا الجيش، فصدر الأمر إلى متصرف قولة بتقديم ما لديه من جنود، فألَّف كتيبة من ثلاثمائة جندي انضم محمد علي ومحمد لاظ في سلكها، ووصلت هذه القوة مع مثيلاتها تحت قيادة حسين قبطان باشا إلى أبي قير في شهر مارس سنة ١٨٠١ م على متن السفن العثمانية، ومنذ ذلك التاريخ، شهد محمد علي كل الأحداث، وحتى جلاء الحملة الفرنسية، وكان محمد علي من ذلك الطراز من القادة الذين عرفوا إمكانات مصر جيدًا، وعلى حد تعبير الأستاذ جمال بدوي عنهم أنهم وضعوا أيديهم على مفتاح شخصيتها؛ فباحت لهم بسرها وجعلت منهم حكامًا يلهج بذكرهم التاريخ.

وعندما تقرأ عن الأحداث التي مرت بها مصر خلال الفترة التي أعقبت جلاء الحملة الفرنسية عن مصر، تشعر أن محمد علي كان يلعب بالنار في جرأة وشجاعة يحسد عليها، وكان الرجل الثاني في القوة الألبانية الموجودة بمصر ضمن قوات الجيش العثماني، وهؤلاء الجنود الألبان كان يُطلق عليهم الأرناؤوط أيضًا. ولقد قام السلطان العثماني بتعيين عدة ولاة على مصر خلال هذه الفترة، واحدًا تلو الآخر، ولكن لم يصمد أحد منهم وسط الظروف التي كانت تحيط به، وكان أول والٍ بعد جلاء الحملة الفرنسية مباشرة هو خسرو باشا، ثم أحمد باشا، ثم علي باشا الجزائرلي، أما آخر والٍ فكان اسمه خورشيد باشا، وكل هؤلاء لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم على مصر.

وقد يكون السبب في ذلك هو محمد علي نفسه؛ فقد كان هو الرأس المدبر للحملة على خسرو باشا، ثم على أحمد باشا، ثم على علي باشا الجزائرلي، ولكنه ظل بعيدًا عن الميدان وترك عثمان بك البرديسي من زعماء المماليك، يأتمر على علي باشا الجزائرلي ويتولى أمر قتله، ليحتمل تبعة هذا العصيان الخطير في نظر الباب العالي إذا ما جاء وقت الحساب، والواقع أن مقتل الجزائرلي كان فيه القضاء على مظهر السلطة العثمانية في مصر، وبذلك تخلص محمد علي من إحدى القوتين اللتين كان يعمل على سحقهما، ولم يبقَ أمامه إلا قوة المماليك، فبدأ العمل على التخلص منها، وتمهيدًا لهذه الغاية، ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهرًا؛ حتى يحملهم تبعة الحكم ومساوئه، ويجعلهم هدفًا لسخط الشعب، وبالطبع كان يساعده في تنفيذ كل هذا محمد بك لاظ، البطل الثاني لقصتنا. وكان لاظ يتابع ما يفعله أستاذه كما لو كان يعزف سيمفونية رائعة، ويحرك جميع الناس من وراء الستار كما يحدث للدُمى في مسرح العرائس.

وفي ظل هذا الجو المأساوي، يدفع محمد علي بالبرديسي التعيس إلى الواجهة، ويكاد يصير حاكمًا على البلاد، ففي السابع من شهر ربيع الأول، أي الثاني والعشرين من شهر سبتمبر لسنة ١٨٠٤ يدخل الشريكان العاصمة، فتستقبلهما الجموع الغاضبة التي تشتكي الفاقة والعوز، وأمام حالة اليأس الكبيرة هذه، يأمر البرديسي محمد علي بفتح مخازن الغلال من توه، وتوزيع الحبوب المخزنة فيها، مَن مِن الرجلين سيستفيد من هذا القرار؟

البرديسي بحسب ما كتبه الجبرتي، لكن ما من شك أن محمد علي سيحظى بحصة هامة من رضى الشعب، ألم يكن هو من يوزع القمح في النهاية؟

لكن، ومهما يكن من أمر، فلحد الساعة لم تحل المشكلات بعد، فعلى البرديسي أن يستجيب لمطالب الجنود المتعددة والمتكررة بتأدية رواتبهم المتأخرة، وهكذا يجتمع مجلس لدى إبراهيم بك، يحضره محمد بك الألفي وغيره من الأمراء، ويتم اتخاذ قرار بتقسيم المبالغ المستحقة بين الأمراء بحسب مواردهم، ولكن هذا لم يكن كافيًا أيضًا، فيُرغم البرديسي على الرفع من الضريبة على تجار القاهرة، وأيضًا على تجار العاصمة من الأجانب؛ وبالتالي سيتسبب ذلك في غضب قناصل الدول، وهكذا فقد كان يتم الاستيلاء على بضائع التجار تحت أنظارهم الحزينة، وتباع بأبخس الأثمان، ولاستدراج دعم الجيش؛ يعمد البرديسي إلى إضافة ضريبة جديدة على المواطنين، وهي النقطة التي أفاضت الكأس، وتحولت القاهرة في الأيام التي أعقبت ذلك إلى بركان يغلي، فاندلعت المواجهات في كل مكان فيها تقريبًا، وارتفعت الأصوات المتوحدة من المآذن تعلن:

– (إيش تاخد من تفليسي يا برديسي، إيش تاخد من تفليسي يا برديسي)

وقام الرجال والنساء على سواء بطلاء أيديهم بطلاء أزرق علامة على الحداد، وأغلقت الدكاكين، وزاد نهب المرتزقة أكثر من أي وقت مضى، والاستيلاء على السفن القادمة من مصر العليا أو السفلى، ونهب ما تحمله من بضائع، وتوجهت الجموع إلى الأزهر، مكان تجمع الشعب في الأزمات العظمى، وتأهبت الأيادي للانقضاض، لكن لم يحدث أبدًا، وهو ما يثبت حسن تدبير محمد علي، وتحت تأثير موجة الغضب العارمة، لم يوجه أحد اللوم إلى الباشا القادم الذي كان يفرك يديه خلف الكواليس، فقد حانت لحظة إلقاء البرديسي في الجحيم، كما قال لمحمد بك لاظ.